دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 45، العدد 3، 2018

الأحجار الكريمة واهتمام العباسيين بها في عصرهم الأول ١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م

*امام الشافعي محمد حمودي، قاسم محمد غنيمات، سطام زهير الخطيب، اسماء ربحي العرب**

ملخص

تعد الأحجار الكريمة من الأشياء الفريدة في الكون، التي أبدع الخالق سبحانه وتعالى في صنعها وجمالها وتعدد ألوانها وأشكالها. وقد بلغ الاهتمام بها في مختلف العصور التاريخية، وخاصة فترة الدراسة العصر العباسي الأول، فكان هناك حرص من خلفاء بني العباس على اقتناء كل غالٍ وثمين من هذه الأحجار الكريمة، التي لم يوجد مثلها عند غيرهم من أهل عصرهم. وقد تناولت الدراسة مفهوم الجواهر والأحجار الكريمة والأسماء المتعددة للأحجار الكريمة وأنواعها المتعارف عليها في العصر العباسي الأول، وأماكن وجودها في بلدان العالم الإسلامي وغير الإسلامي. والطرق المتعددة لاستخراجها سواء أكانت بحرية أم برية، وأسباب اقتناء هذه الأحجار وفئات مقتنيها من الخلفاء والأمراء، وعامة الناس، وكذلك دورها في حياة المجتمع العباسي (العصر الأول).

الكلمات الدالة: الأحجار الكريمة، العصر العباسي الأول، اقتناء الأحجار الكريمة.

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

وبعد،،،

فتعد الأحجار الكريمة من الأشياء الفريدة في الكون التي أبدع الخالق سبحانه وتعالى في صنعها وجمالها وتعدد ألوانها وأشكالها، وقد بلغ من اهتمام العلماء المسلمين بالجواهر والأحجار الكريمة في مختلف العصور التاريخية، أن ألفوا فيها كتباً كثيرة، بينوا فيها خصائصها وأماكن وجودها، وأسعارها، بل جعلوا لها علماً قائماً بذاته هو علم الجواهر.

هذا على الصعيد العلمي، أما على الجانب العملي، فقد اتسع الاهتمام بها في أيام خلفاء بني أمية فامتلأت بها خزائنهم، ولما جاء بنو العباس، عملوا على زيادة الاهتمام بها، حيث نمت حركة التجارة خاصة في العصر العباسي الأول، فأقبل المسلمون على البحث عنها واستخراجها من البحار والجبال في بلدان الخلافة العباسية، كما قاموا باستيراد بعضها؛ لسد حاجة الخلفاء والأمراء المتزايدة منها.

هذا، وإذا كان المجد مبنياً على التّفرد، فإن خلفاء بني العباس، كانوا حريصون على بناء هذا المجد بكل صورة، وذلك من خلال عدة وسائل، كان من أهمها اقتناء كل غالٍ وثمين من هذه الأحجار، التي لم يوجد مثلها عند غيرهم من أهل عصرهم، فكان عندهم على سبيل المثال ما يعرف بالدرة اليتيمة، التي يعبر اسمها عن مقدار ثمنها.

أما عن الدراسات الحديثة السابقة المفردة لمثل هذا الموضوع، فلم نعثر حتى كتابة هذه الأسطر على أي دراسة – حسب العلم والاجتهاد – تتحدث عن هذا الموضوع، سواءً أكان في العصر العباسي الأول، أم في عصور سابقة أو لاحقة له. بل جاء ذكر الأحجار الكريمة عرضا في بعض الكتابات، التي تتحدث عن العصر العباسي ككل، أو تتناول جزئية صغيرة من جزئياته.

ومن أهم المصادر التاريخية التي أفادت الموضوع كتاب (الجواهر وصفاتها) ليحي بن ماسويه، الذى يعد من أقدم الكتب في علم الجواهر، هذا فضلا عن معاصرته لفترة البحث، فهو بمثابة شاهد عيان على ما يتعلق بالجواهر في فترة الدراسة. ومن أهم المصادر أيضاً كتاب (الجماهر في معرفة الجواهر) للبيرونى، الذى أفاض فيه الحديث عن أسماء الأحجار الكريمة، وخواصها الكيميائية، وأماكن وجودها، وطرق استخراجها، وصناعتها، وتجارتها، وهو يعد بحق موسوعة شاملة عن علم الجواهر خاصة في منطقة الشرق الإسلامي، التي ينتمي إليها مؤلف هذا الكتاب. هذا إلى جانب غيرها من المصادر، التي يضيق المقام عن ذكرها.

* كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، مصر (١)، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن (٢، ٣، ٤). تاريخ استلام البحث ٢٠١٦/٠٦/٣٠، وتاريخ قبوله ٢٠١٦/٠٩/١٦.

© 2018 عمادة البحث العلمي وضمان الجودة/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

وقد تناولت هذه الدراسة الحديث عن مفهوم الجواهر والأحجار الكريمة وما يتعلق بهما من ألفاظ، ثم الأسماء المتعددة للأحجار الكريمة وأنواعها المتعارف عليها في العصر العباسي الأول، وكذلك أماكن وجودها في بلدان العالم الإسلامي وغير الإسلامي، والطرق المتعددة لاستخراجها سواء أكانت بحرية أم برية، ولم تغفل الدراسة أيضاً ذكر أسباب اقتناء هذه الأحجار وفئات مقتنييها من الخلفاء والأمراء والعامة من الناس، ثم دورها في الحياة الاجتماعية في تلك الفترة.

مفهوم الأحجار الكريمة

يقول ابن منظور (ابن منظور، ج، ١٩٩٧ مادة حجر): "الحجر: الصخرة، والجمع في القلة أحجار، وفي الكثرة حجار وحجارة... والحجران الذهب والفضة، ويقال للرجل إذا كثر ماله وعدده، قد انتشرت حجرته"، والحجر يراد به عند الإطلاق جواهر كل جسم جماد. (المغربي، أ، د.ت، ص٥٦)

أما وصف هذه الأحجار بالكريمة فمن الكرامة، اسم للإكرام، وهو إيصال الشئ الكريم، أي النفيس إلى المكرم (المناوي، م، ١٩٩٠، ج١، ص٦٠١) أي أنها وصفت بالكريمة من باب إكرام الناس لها، وذلك بدفع الأموال الطائلة من أجل الحصول عليها، وبحفظها في أماكن آمنة.

ومن الألفاظ التي تطلق على هذه الأحجار لفظ الأعلاق النفيسة، والأعلاق من العِلْق بالكسر، وهو الشئ النفيس الذي يتعلق به صاحبه فلا يبرح عنه، والشئ النفيس سمي به؛ لأن النفوس تعلق به (المناوي، م، ١٩٩٠، ج١، ص٥٢٣) والنفيسة من النفيس، والنفيس والمنفس المال الذى له قدر وخطر، ثم عمّ فقيل: كل شئ له خطر وقدر فهو نفيس (ابن منظور، ج، ١٩٩٧، مادة نفس)، فالنفيس الخطير الجليل، (المناوي، م١٩٩٠، ج١، ص٧٠٨).

ويطلق عليها أيضاً لفظ الجواهر، والجواهر: معروف، الواحدة جوهرة، والجوهر كل حجر يستخرج منه شئ ينتفع به، وجوهر كل شئ ما خلقت عليه جبلته، وقيل الجوهر فارسي معرب (ابن منظور، ج، ١٨٨٢، مادة جهر)، ومن المؤرخين المسلمين من يحصر لفظ الجوهر في اللؤلؤ فقط، من ذلك قول الغزولي (الغزولي، ع، ١٨٨٢، ج٢، ص١٤٠) "الجوهر اسم عام يطلق على الكبير والصغير منه. أي اللؤلؤ فما كان كبيراً فهو الدّر، وما كان صغيراً فهو اللؤلؤ"، ويقول شيخ الربوة عن ذلك أيضاً (شيخ الربوة، م، ١٨٦٥، ص٧٧): "اللؤلؤ معدن حيواني وهو الجوهر المختص بتسميته الجوهرية، وما عداه فمن حيث عموم الجنس".

وتوصف هذه الجواهر أحياناً بلفظ الفريدة: وهي الجوهرة النفيسة كأنها مفردة في نوعها، والفرّاد صانعها (ابن منظور، ج، ١٩٩٧، مادة فرد)، كما يطلق على محترف حرفة صوغ المعادن النفيسة وبيعها لفظ الجواهرجي والجوهري، (عمارة، م، ١٩٩٣، ص١٥٨).

أسماء الأحجار الكريمة وأنواعها

بعد أن قامت الدولة العباسية، زاد اهتمام الخلفاء والناس. خاصة من كبار رجال الدولة . بالأحجار الكريمة، وتفننوا في التزين بها واقتناءها، فانتشرت تجارتها وزادت أسعارها، وقد تنوعت أشكالها في العصر العباسي الأول وتعددت أسماؤها.

ذكر يحى بن ماسويه أبو زكريا، ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م، كبير أطباء الخلفاء العباسيين، (ابن ماسوية، ي، ١٩٧٧، ص١٥، ٢٠) أسماء هذه الأحجار الكريمة، التي كانت منتشرة في ذلك العصر فذكر منها: اللؤلؤ، الياقوت، الزمرد، الماس، الخرين، المادينج، الأفلوج، الجمست، العقيق، الجزع، الدهنج، السبس، الياسب، الفيروزج، البُسذ، اللازورد، المكىّ، الكركهن، الكركند، الياسميس، الكرك، المسنّى، العنبرى، الغزوني، الخلنجي، البلّور، القُبورى (ابن ماسويه، ي، ١٩٧٧، ص٢٤-٢٥) غير أن هذه المعادن لا تكاد تحصى، لكن منها ما يعرفه الناس ومنها مالا يعرفونه. (الأبشيهى، م، ١٩٨٣، ج٢، ص٣٠٩).

وإذا كانت هذه أسماء الأحجار الكريمة الأكثر انتشاراً في العصر العباسي الأول، إلا أن منها له أسماء أخرى، وأنواع أخرى ذكرها يحي بن ماسويه نفسه، وغيره أيضاً من المؤرخين المهتمين بهذه الأحجار.

وفي مقدمة هذه الأحجار الكريمة ذات الأسماء والأنواع المتعددة، اللؤلؤ، وهو نوعان؛ كبير ويسمى الدّر وصغير ويسمى اللؤلؤ (شيخ الربوة، م، ١٨٦٥، ص٧٨).

و ذُكر المرجان في القرآن الكريم بهذا الاسم (كأنهن الياقوت والمرجان)، (الرحمن ٥٨)، وكان معروفاً أيضاً في العصر العباسي بهذا الاسم، (البيروني، م، ١٩٩٥م، ص١٠٨) إلا أن العامة من الناس كانت تطلق عليه اسماً آخر بجانب هذا الاسم هو مُسمى البُسذ، وكانت هذه التسمية أشهر من المرجان. يقول ابن خرداذبه عن ذلك (المسالك والممالك، د.ت، ص٩٢): "يُقلع من قعر هذا البحر . بحر الروم أو البحر المتوسط الآن . البُسذ، وهو الذى تسميه العامة المرجان" ومن الأحجار الكريمة التي ذكرت في القرآن الكريم أيضاً وحملت أسماء متعددة في العصر العباسي الأول، الياقوت، ومن أشباه الياقوت الأحمر، نوع يسمى الكركند، أى الياقوت الأصم، لأنه منعقد ضعيف الشفافية كدر، (البيروني، م ١٩٩٥، ص١٢٦).

ومن الأحجار الكريمة ذات الأسماء والأنواع المتعددة في

العصر العباسي الأول: الزمرد والزبرجد وهما اسمان يترادفان على معنى واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر إلا بالجودة والندرة (البيروني، م١٩٩٥، ص٢٦٢).

ويعرف حجر البلّور أيضاً باسم المها (البيروني، م١٩٩٥، ص٢٩٢)، وهناك نوع آخر من العقيق يعرف بالينع (ابن منظور، ج، ١٩٩٧، مادة ينع) كما يعرف الفيروزج بالفارسية باسم "النصر" ويسمى "حجر الغلبة" ويسمى أيضاً حجر العين، (ابن الإكفاني، م، ١٩٣٩، ص١١).

وعلى الرغم من تعدد أنواع الأحجار الكريمة في العصر العباسي الأول وتنوع أسماؤها، إلا أن هناك أحجاراً أخرى كانت موجودة في ذلك العصر، غير أنها كانت قليلة الأهمية قياساً مع الأحجار السالفة الذكر. يقول البيروني، م، (١٩٩٥، ص٣٥٣-٣٦٢): عن هذه الأحجار: "فلنذكر الآن أحجاراً معروفة الأسماء وبعضها مجهولة الحقيقة والذات"، ثم ذكر منها حجر الشاذنج، حجر الحَلْق، الحجر الجالب للمطر، حجر البَرَدَ، مع أن الأحجار الكريمة في العصر العباسي الأول كانت متعددة الأسماء والأنواع والأشكال، إلا أن بعضها كان أكثر أهمية وأوسع انتشاراً من بعضها، فقد كان الياقوت سيد الأحجار (الأبشيهي، م، ١٩٨٣، ج٢، ص٣١٠)، مع أنه كان عزيزاً قليل الوجود (الدمشقي، ج، ١٩٠١، ص١٤) سيما الأحمر والأصفر (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص١٢٤).

صناعة وتشكيل الأحجار الكريمة

اشتهرت بغداد بالصياغة وبلغت صناعتهم باعاً طويلاً في الدقة والجمال حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب (البيطار، أ، ١٩٩٧، ص٣٦٧)، فهم أرباب صناعة وصياغة وتجارة أدوات وحُلي الذهب والفضة، ونحوهما من المعادن والجواهر الكريمة والنفيسة، والصّاغة تطلق على مكان عملهم أيضاً. (عمارة، م، ١٩٩٣، ص٣٣٤).

وقبل الحديث عن صناعة الأحجار الكريمة وتشكيلها تفصيلاً، يجب أن نذكر بأن هناك حجراً لا غنى عنه في الاستخدام لتشكيل الغالبية العظمى من الأحجار الكريمة وهو حجر السنباذج، وهو حجر حديدي خشن الجسد فيه قوة وله سلطان على قطع الأحجار والمعادن كلها إلا الياقوت... وجميع الحكاكين للجواهر يستعملونه في الحك والجلاء، (شيخ الربوة، م، ١٨٦٥، ص٧١-٧٢).

أما عن صناعة وتشكيل اللؤلؤ، فإن اللؤلؤ الدُّق وهو صغير الحجم أو غير تام النضوج فتكون عليه جلدة سوداء غليظة، فتُحك تلك الجلدة بالمبرد، (ابن منظور، ج، ١٩٩٧، مادة برد) إلى أن يزول عنه السواد (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٧٧)، بعد ذلك يثقب هذا الحبّ؛ لأنه يزداد بحُسن التأليف في النظم حسناً ورونقاً وقيمة، ويثقب بالماس (ابن الإكفاني، م، ١٩٣٩، ص٨).

ذلك أن جدوى الجواهر هو التزين بها، وأكثر ذلك بالتعليق في بعض الأعضاء، وذلك غير متأت إلا بالثقب فيه... وإذا ثقبت اللآلئ قيل لها مثاقيب (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢١٨) كان اللؤلؤ المنفخ يستعمل مع الجواهر في التيجان (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٢٨) ويستعمل اللؤلؤ غير المثقوب في المعاجين وفي الأكحال، ولا يستعمل فيه إلا مسحوقاً وتقصد صغار اللؤلؤ في ذلك دون الكبار لرخص الأثمان. (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢١٨-٢١٩).

كان الصاغة في بغداد يصنعون من اللؤلؤ أشكالاً عدّة غير حُلي النساء، فقد كان لدى الخليفة المأمون سبحة من الدّر... وكان لأم جعفر زبيدة زوجة الرشيد سبحة من الدّر، كان سراؤها خمسين ألف دينار. (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٥٧).

كان المرجان يُحك على حجر صلب، ويجلى بالسنباذج المطحون بالماء في رحى، ثم يلقى عليه السنباذج في تلك الرحى، ويثقب بالحديد الفولاذ، وإن ألقى في الخل إبيض، وإن ألقى في الدهن رجع إليه لونه (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٥٩)، أما عن مكان صناعة وتشكيل المرجان فذكر ابن الوردي بأن مدينة سبته بها شجر المرجان الذى لا يفوقه شئ حسناً وكثرة، وبها سوق كبير لإصلاح المرجان. (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص١٦).

بالنسبة لصناعة وتشكيل الياقوت فهو حجر صلب شديد اليبس رزين صاف (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص١٢٤)، وعلاجه بالنار بأن يؤخذ حصى من حصى تلك الجزيرة . جزيرة سرنديب . أو الأرض فيدق ويسحق بالماء حتى يلزم بعضه بعضاً، ويُطلى على ذلك الحجر حتى يغيب فيه، ثم يوضع على حجر ويحاط حوله حجارة ويلقى عليه الحطب، ثم ينفخ عليه، لا يقطع فيه النفخ والنار على قدر ما فيه من السواد، وذلك ببلاد الهند، وقد يعالج بعضه ببلاد العرب، أو في العراق والهند (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٤٥) وذلك قليل. (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٤٤-٤٥).

وبعد أن يجلى الياقوت ويزول ما به من سواد، يثقب بالماس، فالياقوت لصلابته يغلب ما دونه من الأحجار ثم يغلبه الألماس فلا يقطعه غيره، (البيروني، م، ١٩٩٥، ص١٢٢) وذلك بأن تركب منه قطعة في طرف مثقاب حديد ثم يثقب به كما يثقب الخشب (الغزولي، ع، ١٨٨٢، ج٢، ص١٤٥-

١٤٦)، ولأشكال الفصوص من الياقوت أسماء عند الجوهريين فأولها المربع والمدور والمثمن، وهو سطح يحيط به ثمانية أضلع متساوية، (عماره، م، ١٩٩٣، ص٥١٢).

وحجر الماس لا يلتصق بشئ من الأحجار إلا هشّمه وكسّره، غير الأسرب (الرصاص)، (الأبشيهي، م، ١٩٨٣، ج٢، ص٣١٠)، فإنه إذا ضرب بالأسرب كسر الماس، ولو جعلته ألف قطعة كان جميع قطاعه مثلثة، وكلما كان حجمه أكبر كان تأثيره أقوى، وأهل العراق وخراسان لا يفرقون بين ألوانه؛ لأنهم إنما يستعملونه في ثقب الجواهر خاصة (ابن الإكفاني، م، ١٩٣٩، ص٦)، حيث يضعون منه قطعة في طرف المثقب ويثقبون به الأحجار الصلبة والجواهر (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص٦).

أما الزمرد فهو حجر ليس صلبا، يكتلى إذا ورد على النار (المسعودي، ع، ١٩٧٣، ج٢، ص٢٤)، فيعالج أولاً بالسنباذج على الأسرب، ثم يجلى (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٥٥)، وقد ذكر المسعودي رواية تفيد بأن أماكن جليه وتشكيله كانت في مصر، يقول في هذه الرواية (المسعودي، ع، ١٩٧٣، ج٢، ص٢٣): "إن الزمرد المستخرج من مصر تتباهى ملوك السند والهند والزنج والصين في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليلها وخواتمها وأسورتها". ويستفاد من هذه الرواية أيضاً أن الصاغة في مصر كانوا يستخدمون الزمرد في تزيين وترصيع التيجان والأكاليل والخواتم والأساور.

كان العقيق الهندي يؤتى به من قرية هندية يقال لها بروص أوخور بروص، يلتقط من أودية بها، ثم يعمل له تنانير، ويمد طُرّيقة حجارة بعضها فوق بعض منه، وطريقة من روث البقر (أي مخلفاته)، فيفرش كذلك طريقة بعد طريقة، حتى يملأ، ثم يشعل فيه النار، ويترك حتى يحترق الروث، ويكون فيه كذلك أياماً، ثم يترك حتى يبرد، فإذا برد أخرج وأحمل إلى البصرة حجارة جوهر غير معمول فيكسر، وهو ما بين وزن درهم إلى رطل، ثم يلقط بحديدتين، ولقطه أن تقام له حديدة حادة الطرف، فيوضع ما يراد كسره أو لقطه من الحجر على ذلك الطرف فيوضع ويضرب الحجر بمطرقة صغيرة فيقلع الموضع الذى يراد قلعه، ويحك بعد ذلك على حجر، ثم يحك على الأسرب بالسنباذج، ثم يلين الأسرب والسنباذج ثم يجلى على خشب العشر بجلاء البلّور. (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٦٦-٦٧).

كما تنحت منه الموائد والمشارب وأمثالها بأرض الترك، وإذا راقت نقوشه عمل منها نصب السكاكين والخناجر (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٨٥)، ويعمل منه أواني كبار وصغار، حتى الخاتم والخرزة وهي فصوص من حجارة واحدتها خرزة (ابن منظور، ج، ١٩٩٧، مادة خرز) والفص (شيخ الربوة، م، ١٨٦٥، ص٦٩)، وهذه الفصوص يعمل منها فصوص برسم بشكل الملوك والأعيان ولها أثمان كثيرة، إذ يخلص الصناع منها كتابة تخالف لونها أرضها، ولا يكادون يتمكنون من الكتابة إلا من أن يكون وجه الفص غير مسطح. (الدمشقي، ج، ١٩٠١، ص١٨).

بالنسبة لحجر البلّور فربما يعالج فيذوب كما يذوب الزجاج، ويوجد البلّور في معادنه مناجمه وعليه غشاء رقيق، فإذا قشر عنه خرج كأنه لون الماء المقطر الصافي (المغربي، أ، د.ت، ص٧٩)، كما أنه يقبل الصبغ (الغزولي، ع، ١٨٨٢، ج٢، ص١٥٩)، أما عن أماكن صناعة البلّور، فيقول المغربي عن ذلك (المغربي، أ، د.ت، ص٨٠): "أخبرني بعض الحكاكين بمدينة الإسكندرية أنه يعالج البلّور"، أي أن الإسكندرية كانت من المدن المهتمة بصناعة وتشكيل البلّور، وكان البلّور يجلب أيضاً إلى البصرة، ويتخذ بها منه الأواني وغيرها، وفي موضع العمل هناك توضع عنده القطع الكبار والصغار، فيروى فيها ويهندس أحسن ما يكون أن يعمل منها، وأوفقه للنحت. (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٩٥).

كان يصنع منه الخواتم، وبعض أنواع القناديل، وبعض أدوات الزينة؛ لأن البلّور أنفس الجواهر التي تعمل منها الأواني (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٩٥) فيصنع منه كل عجيب من الأواني (الغزولي، ع، ١٨٨٢، ج٢، ص١٥٨).

كان حجر اللازورد يعمل كما يعمل العقيق، ويجلى على المسن بماء (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٦٢) والمطحون منه لا يحتاج إليه إلا في التزويق فقط (الدمشقي، ج، ١٩٠١، ص١٨)، و ذكر ابن رسته أنه في بغداد مسجد جامع مبنى بالجص والآجر مرفوع باساطين الساج ومسقف بخشب الساج، مزوق باللازورد (ابن رسته، أ، د.ت، ص١٩).

أما الفيرزوج فإنه يعمل منه فصوص (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص١٥٤) وأهل العراق يؤثرون منه الممسوح، أما أهل خراسان والهند فإنهم يستحبون المقبب المدور الشبيه بحبة العنب (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٧٧)، ولاشك أن هذه الأشكال السالفة الذكر إنما تدل على مدى دقة ومهارة الصناع وقدرتهم الفنية على تعدد هذه الأشكال لإرضاء جميع الأذواق.

كانت هذه الأحجار الكريمة الثانوية غير المشهورة وغيرها من الأحجار الأخرى لها استعمالات عديدة أيضاً، فكان حجر الدهنج يعمل منه الأجاوين، نوع من الأواني، والأخاوين، وهو ما يؤكل عليه الطعام وما أشبه ذلك (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٦١)، ويعمل من حجر اليشم الخواتيم ونصب السكاكين. (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٣١٧).

من خلال هذا العرض لصناعة وتشكيل الأحجار الكريمة في العصر العباسي الأول، يتضح أن الدولة العباسية لم تهتم بتشجيع الناس على استخراج الأحجار الكريمة من مناجمها فقط، بل كانت تعمل على تشجيع الصاغة وأرباب صناعتها على تشكيلها في قطع فنية رائعة، وقد تمثلت مظاهر هذا التشجيع في شراء الخلفاء وكبار رجالات الدولة لهذه القطع الفنية بجميع أشكالها وصورها بمبالغ باهظة – سيذكر ذلك لاحقاً في هذه الدراسة – مما شجع هؤلاء الصاغه على الإبداع وإخراج كل طاقاتهم الفنية في تشكيلها وصناعتها.

أسباب اقتناء الأحجار الكريمة

الجواهر الثمينة ترغب في اقتنائها الملوك والسلاطين؛ لعظم الثمن وخفة المحمل والمباهاة بها وعدمها عند العامة، وما كان كذلك فنظر مالكه إليه وتقليبه إياه يسره ويبهجه ويشرح صدره ويطيب نفسه فهو يزداد به فرحاً، (الدمشقي، ج ١٩٠١، ص١٣) فإذا كانت هذه هي أسباب اقتناء الأحجار الكريمة عامة، فإنه يمكن حصر أسباب اقتناءها في العصر العباسي الأول على النحو الآتي:

١. جمال الأحجار الكريمة:

من أهم الأسباب التي كانت تدعو إلى اقتناء الأحجار الكريمة بشرائها ودفع الأثمان العالية فيها سواء أكان في العصر العباسي الأول، أم في أي عصر ومصر، هو جمالها في حد ذاتها وحسن صنعتها من الخالق سبحانه وتعالى، وميل النفس البشرية بوجه عام إلى اقتناء كل ما هو حسن وجميل.

وكان حجر البلخش أقل أهمية من الياقوت، وكان يشترى لحسنه (ابن الإكفاني، م، ١٩٣٩، ص٥)، وكان الملوك يتخذون الماس عندهم لشرفه (الابشيهي، م، ١٩٨٣، ج٢، ص٣١١)، أما اللازورد فكان يجرى عند الملوك مجرى العقيق، فلا يتخذ منه إلا ما كان حسناً جوهره، واتخذ منه آله مليحة لا تتمكن العامة من اتخاذها (الدمشقي، ج، ١٩٠١، ص١٨)، فإن الملوك تتزين بصنوف الزينة المثمنة ليجلوا في القلوب جلالة الأموال في العيون، فتتوجه إليهم الأطماع وتناط بهم الآمال. (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٩٦).

٢. القيمة المادية للجواهر:

إن هذه الأحجار الكريمة أصبحت في عصر تميز بنمو الحركة التجارية وقوتها، بديلاً مهماً لأنواع العملات المعدنية، فهي أكثر قيمة وأخف حملاً (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٥، مقدمة المحقق)، وكان الملوك أحوج الناس إلى جمع الأموال؛ لأنهم بها يملكون الأزمة ويسيرون بمكانها الأعنّة (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٩٧)، قال بعض آل مروان من بنى أمية: لم يكن لنا في هربنا شيء أنفع من الجوهر الخفيف الثمن الذى لا تجاوز قيمته الخمسة دنانير (البيروني، م، ١٩٩٥، ص١٣٩)، أي أن سبب اقتناء الجواهر في عصر بني أمية كان بدافع الحاجة إليها في أوقات الشدة؛ نظراً لارتفاع ثمنها وخفتها في الحمل عن الدراهم والدنانير.

وكانت هذه الغاية هي ما نصح به أحد بني أمية الخليفة العباسي المنصور، فقد أتى برجل من بني أمية إلى الخليفة المنصور فقال له: إنى أسألك عن أشياء فاصدقني ولك الأمان، قال: نعم، قال: من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال: من تضييع الأخبار، قال: فأي الأموال وجدوها أنفع؟ قال: الجوهر، قال: فعند من وجدوا الوفاء؟ قال: عند مواليهم (ابن الأثير، ع، ١٩٩٥، ج٥، ص٢٢٥)، فقد آثروا العين. الذهب – على الورق – الفضة. في الاصطحاب وخف عليهم محمله، وحين لم يأمنوا الواقعات النائبة سجالاً، وقد عرف أن النجاء فيها بالقلة والخفة، مالوا إلى الجواهر، إذ أن حجمها عند حجم الذهب أقل قدراً، فاصطحبوها معهم، وقرنوها بأنفسهم (البيروني، م، ١٩٩٥، ص١٠٠)، وربما يكون هذا السبب من أكبر الأسباب التي دعت الخلفاء وكبار رجالات الدولة بوجه خاص إلى اقتناء هذا النوع من الأحجار.

٣. الفوائد الطبية:

كانت الفوائد الطبية والصحية لبعض الأحجار الكريمة من الأسباب التي دعت العامة والخاصة لاقتناء هذه الأحجار، وسواء أكانت هذه الفوائد الطبية لهذه الأحجار صحيحة أم خاطئة، فإنها أدت بدورها إلى زيادة الطلب في اقتنائها، هذا مع العلم بأن المصادر المتخصصة في الجواهر والأحجار الكريمة قد أفاضت كثيراً في ذكر فوائد هذه الأحجار الطبية، ولم تستثن من الأحجار في هذا المضار إلا القليل.

كان الملوك يتخذون من البلّور أواني، على اعتقاد أن الشرب فيه له فوائد. (المغربي، أ، د.ت، ص ٧٩) وكانت هناك العديد منها تدخل في علاج العيون وفق المعلومات الطبية المتوفرة في ذلك العصر، فكان اللازورد ذا منفعة للعين اكتحالاً إذا خلط في الأكحال (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص١٢٦) ومن فوائد المرجان أيضاً أنه يقطع نزيف الدم ويقوي القلب، وينفع من عسر البول (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص١٤٣) أما العقيق فإن السواك بنحاتته ينظف الأسنان ورائحتها الكريهة (ابن الوردي، س، ١٩٢٣، ص١٢٦).

٤. الموروث الشعبي:

لم تتوقف أسباب اقتناء الأحجار الكريمة عند حد حسنها وقيمتها المادية أو حتى فوائدها الطبية إن صحت، بل تعدتها إلى حد بعض الموروثات والمعتقدات الشعبية في نفع أو ضرر

بعضه للإنسان سواء أكان من الخاصة أم العامة.

فمن اعتقادات الناس في بعضها، أن كبار الناس كانوا يرغبون في لبس الفيروزج تفاؤلاً باسمه (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٧٥)، وكان الفيروزج يسمى أيضاً حجر العين، لأن حامله يدفع عنه شرها (ابن الإكفاني، م، ١٩٣٩، ص١١) وأشار المسعودي إلى اعتقاد الناس في حجر الزمرد وحمايته لهم من الأفاعي. (المسعودي، ع، ١٩٧٣، ج٢، ص٢٤).

هذا لم تقتصر المعتقدات الشعبية على عامة الناس في الأحجار الكريمة بل تعدتهم إلى الملوك وعلّية القوم، فقد كان الفيروزج يسمى أيضاً بالفارسية "النصر" ولذلك يسمى "حجر الغلبة" والملوك تعظم هذا الحجر، لأنه يدفع القتل عن صاحبه، ولم ير في يد قتيل قط، ولا في يد غريق (ابن الإكفاني، م، ١٩٣٩، ص١١).

فئات مقتني الأحجار الكريمة

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئاً فشيئاً عند من هم أقل منهم في الجاه، إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس، وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدر لهم واتساع نعمة عندهم، أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها، بعد أن تغربوا بالأسفار التي أكسبتهم التجارب وأرتهم العجائب، وأوجدت لهم التجارات والمكاسب، فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأفخر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمرت عندهم الأسواق... فتطرقوا إلى اقتناء الأشياء للزينة والمباهاة، ابتياعهم السلاح المرصع بالذهب، وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر. (المدور، ج، ٢٠٠٣، ص٩٧).

كانت الجواهر قنية الأكاسرة، واتسعت الجواهر في أيام بني أمية، وامتلأت بها خزائنهم، ثم فاجأتهم الدولة العباسية، فأقبلوا على إنمائها والزيادة فيها ولم تزل جواهر الخلافة في الازدياد إلى أيام الخليفة العباسي المقتدر (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) فقد كان الخلفاء قبل المقتدر يبسطون أيديهم في الجواهر بقدر لا يجحف ولا يلامون عليه (البيروني، م، ١٩٩٥، ص١٣٢-١٣٣)، فقد وجد بنو العباس في خزائن مروان بن محمد حين ظفر به بمصر مائدة من العقيق أرضها بيضاء وفيها خطوط سود وحمر، سعتها ثلاثة أشبار، وغلظها أصبعان. (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٧٩).

هذا قد تمثلت فئات مشتري الأحجار الكريمة في العصر العباسي الأول في الفئات الاجتماعية الآتية:

١. فئة الخلفاء والأمراء:

بداية يجب القول بإن فئة كبيرة من الجواهر التي كان يمتلكها الخلفاء والأمراء في العصر العباسي الأول، قد انتقلت إليهم من خزائن بني أمية، بعد أن تغلبوا عليهم، فقد انتقل إلى بني العباس – على سبيل المثال – حين انتقل الأمر إليهم درة بني أمية العظيمة التي زعم الناس أنهم لم يروا في عظمها، ولم يكن في الضوء والبياض مثلها كذلك (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٧٤).

وحصل خلفاء العصر العباسي الأول على فئة كبيرة أيضاً من الأحجار الكريمة عن طريق الكنوز والدفائن الخاصة بالأمم السابقة، خاصة أكاسرة الفرس، فوجه أبو جعفر المنصور قائده خالد بن برمك إلى طبرستان لمحاربة الأصبهبذ (عامل الفرس على طبرستان)، (ابن الفقيه، أ، ١٨٨٥، ص٣٠٧-٣١٠) وكانت الأكاسرة أيام هروبهم من العراق إلى مرو قد أودعوا في هذا الحصن نفيس أموالهم لصعوبة الحصن ومنعته، فوجد خالد بن برمك في خزائنهم من الجواهر والتيجان والسيوف المكللة بالدر والياقوت والزمرد الشيء الكثير (ابن الفقيه، أ، ١٨٨٥، ص٣١٤).

أما عن شراء الخلفاء العباسيين لها في العصر العباسي الأول، فيأتي في مقدمتهم أبو العباس السفاح، الذى بعث إلى الكعبة المشرفة صحفة خضراء من زبرجد اشتراها بأربعة آلاف دينار (البيروني، م، ١٩٩٥، ص١٤١) وقد ذكر البيروني أن شراؤه أربعين ألف دينار (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٦٧) وقد كثرت الجواهر في عهد أبى جعفر المنصور، لدرجة أنه كان قد جعل على حفظهما إحدى جواريه، فقد كانت جمرة العطارة عطارة بنت ابي جعفر (الطبري، م، د.ت، ج٤، ص٥٤١) جارية الجوهر في قصر أبى جعفر المنصور. (الطبري، م، د.ت، ج٥، ص٩٢).

كان هارون الرشيد شديد المحبة للجوهر (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٨٠) وذكر البيروني بأن الرشيد سلَّم إلى يحى بن خالد جراباً من جواهر ليحفظه (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٦٠)، وهي كمية كبيرة بالفعل وتدلل على مدى حبه للجواهر وحرصه على اقتنائها. ولعل خير ما يدلل على أن هارون الرشيد كان من أكثر خلفاء العصر العباسي الأول شراء للأحجار الكريمة، أن الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد بعد تصفية البرامكة . قال: لما مات الرشيد وولى الخلافة محمد الأمين بعد أبيه في سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م أمرني أن أحصي ما في الخزائن فوجدت فيها... جوهر قدر بأربعة آلاف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار(٤ مليون ونصف دينار) وألف خاتم جوهر (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٤-١٥).

هذا ولم تقتصر عملية شراء الأحجار الكريمة على خلفاء بنى العباس فقط بل كان لأمراء البيت العباسي ونسائه نصيباً

في ذلك. من هذا أنه لما ظفر بإبراهيم بن المهدي في سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م كان في يده خاتم فصه ياقوت أحمر، كان شراؤه عشرة آلاف دينار، وكان مع عيسى بن أبى جعفر المنصور فصاً من ياقوت أحمر (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٧٨) وذكر آنفاً بأنه كان لأم جعفر زبيدة زوجة الرشيد سبحة من الدر، كان شراؤها خمسين ألف دينار. (البيروني، م، ١٩٩٥، ص٢٥٧).

ومن مقتنيها أيضاً أصهار البيت العباسي، ففي سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م تزوج المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل في رمضان، فلما دخل إليها نثرت عليها جدتها ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون، فأمر المأمون بجمعه، فجمع فأعطاه بوران (ابن الأثير، ع، ١٩٩٥، ج٦، ص٣٩٥) حيث جاءت جدة بوران بمكتل من ذهب مرصع بجوهر كبار نثر على من حضر من النساء. (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص٩٩).

٢. فئة كبار رجال الدولة:

إن الجواهر خاصة من آلات الملوك، فإذا كانت عند غيرهم ممن لا يليق بحاله، تلونت الظنون فيه، بأنها إما مسروقة والسارق مطلوب، وإما متملكة حقاً لمتنكر من الكبار، ومثله مرصود (البيروني، م، ١٩٩٥، ص١٠٠).

كان كبار رجال الدولة ووجهاؤها في العصر العباسي الأول من المهتمين بشرائها واقتنائها، فهم الأقدر على شرائها بعد فئة خلفاء بنى العباس، فضلاً عن الهدايا والهبات من الأحجار الكريمة، والتي كانوا يحصلون عليها من الخلفاء أنفسهم، فقد بعث الهادي إلى يحيى بن خالد البرمكي فآمنه وأعطاه خاتم ياقوت أحمر في يده (الطبري، م، د.ت، ج٨، ص٢٠٨) وكان جبريل بن بختيشوع بن جرجس – أحد أطباء الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد – اشترى جواهر وما أعده للذخائر بقيمة خمسمائة ألف دينار (ابن أبي أصيبعة، أ، ١٩٩٨، ص١٧٩) ولما قدم المأمون بغداد منصرفاً من خراسان، أهدى إليه الفضل بن الربيع فص ياقوت لم ير مثله (البيروني، م، ١٩٩٥، ص١٣٨) فلو لم يكن هذا الوزير لديه القدرة المالية على شراء هذا الفص من الياقوت، ما أهداه للخليفة.

لما قبض على المازيارين قارن بن بندار صاحب طبرستان (المسعودي، ع، ١٩٧٣، ج٤، ص٦١) وإخوته وأهل بيته وحمل إلى أمير المؤمنين المعتصم سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م، طلب من المازيار أن يقدم تقريراً عن مقدار ثروته، فقال المازيار: أشهدوا أن جميع ما حملت من أموالي وصحبني ستة وتسعون ألف دينار، وسبع عشرة قطعة زمرد، وست عشرة قطعة ياقوت أحمر... وتاج وسيف من ذهب وجوهر، وخنجر من ذهب مكلل بالجوهر، وحق كبير مملوء جوهراً (الطبري، م، د.ت، ج٩، ص٩٦)، وكانت قيمة الحق الكبير المملوء جوهراً ثمانية عشر ألف درهم، ١٨ مليون درهم (ابن الأثير، ع، ١٩٩٥، ج٦، ص٥٠٢) هذا فضلاً عن سعر الزمرد والياقوت والسيوف والخناجر المكللة بالجواهر، التي تشهد على مدى اهتمام كبار رجال الدولة بالأحجار الكريمة وشراءها سواء أكان هذا الشراء والاقتناء بوجه حق أم لا.

٣. فئة العامة:

ذكر آنفاً في أسعار الأحجار الكريمة بأن بعضها كانت أسعار لا تتجاوز الدينار الواحد، بل إن بعضها كان أقل من نصف دينار، ولاشك أن هذا السعر الزهيد لها، كان في متناول الكثيرين من عامة الناس في العصر العباسي الأول، فأقبل عامة الناس على شرائها، لا لقيمتها المادية، بل لتطلع النفس البشرية بوجه عام إلى حب مثل هذه الأحجار الكريمة لحسنها وبريقها.

على الرغم من أن اللؤلؤ كان من أغلى الجواهر في العصر العباسي الأول. إلا أنه كان منه نوع كان يستعمله الناس جميعاً، فقد ذكر يحى بن ماسويه بأن اللؤلؤ الذى يستخرج من مغاص سرنديب هو عامة اللؤلؤ المعروف بالدّق الذى يستعمله الناس جميعاً. (ابن ماسويه، ي، ١٩٩٧، ص٣٦-٣٧).

وكان العقيق من الأحجار التي يحرص عامة الناس على شرائه، يقول الدمشقي عن ذلك (الدمشقي، ج، ١٩٠١، ص١٧): "إن العقيق من أحسن الجواهر المليحة لولا كثرته، وهان عند الملوك لاقتدار العامة عليه، فهم لا يتخذون إلا ما كان حجراً كبيراً قد عملت منه آلة مليحة مثل القدح أو ما جرى مجرى ذلك، فيقتنى على حكم الاستظراف والوجود..".

ويجرى اللازورد عند الملوك مجرى العقيق، فلا يتخذ منه إلا ما كان حسن جوهره. (الدمشقي، ج، ١٩٠١، ص٢٢) وكان الفيروزج أيضاً مما تحرص عامة الناس على شراءه، يقول الدمشقي أيضاً عن ذلك (الدمشقي، ج، ١٩٠١، ص١٦): "الفيروزج لا يكاد كثير من الملوك يرغب في لبسه لأجل أن العامة تكثر من التختم به".

دور الأحجار الكريمة في الحياة الاجتماعية

لم تكن الأحجار الكريمة التي حرص الخلفاء وكبار رجال الدولة العباسية على شرائها واقتنائها، توضع في خزائن مكنونة للحفاظ عليها وعلى قيمتها فقط؛ بل كانت تؤدي دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، وقد تمثل هذا الدور في المقام الأول في التعبير عن الأبهة والوجاهة الاجتماعية.

كانت أكبر مظاهر التعبير عن الأبهة والوجاهة الاجتماعية، تتم في مراسم الزواج، وقد ظهر هذا جلياً منذ بداية الدولة العباسية، فقد تزوج أبو العباس السفاح من أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان معها مال عظيم وجوهر... فلما دخل عليها من ليلته فإذا هي على منصة، فصعد عليها، فإذا كل عضو منها مكلل بالجوهر. (المسعودي، ع، ١٩٧٣، ج٣، ص٢٧٥).

ولما دخل الرشيد بزوجته زبيدة أم جعفر ابنة جعفر بن أبى جعفر المنصور سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م استعد لها بما لم يستعد لامرأة قبلها من الآلة، وأصناف الجواهر، والحلي والتيجان والأكاليل (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص٩١-٩٢) فأعطاها الرشيد بدنةعبدة ابنه عبد الله بن معاوية امرأة هشام بن عبد الملك، ولم ير في الإسلام مثلها ومثل الحب الذى كان فيها، ولا يعرف قيمتها عظماً، وكان في ظهرها وصدرها خطان من ياقوت أحمر، وباقيها من الدر الكبار الذى ليس مثله (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص٩١-٩٢) وزينها الرشيد بالحلي حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجوهر. (المدور، ج، ٢٠٠٣، ص٩٥).

أما الخليفة المأمون، فعندما تزوج ببوران بنت الحسن بن سهل فرش حصير من ذهب مسفوف ونثر عليه جوهر كثير فجعل بياض الدر يشرق على صفرة الذهب وما مسه أحد، فوجه الحسن بن سهل . والد العروس . إلى المأمون وقال له: هذا نثار ونحب أن يلقط، فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء: شرفن أبا محمد، فمدت كل واحدة منهن يدها، فأخذت درة، وبقى باقي الدر يلوح على الحصير الذهب (ابن الساعي، ع، د.ت، ص٧٠) ويستفاد من هذه الرواية أن نساء الخلافة العباسية لم تغرهن هذه اللآلئ، لدرجة أنهن لم يمددن أيديهن لأخذ واحدة منها، إلا بعد أن طلب منهن الخليفة المأمون ذلك إكراماً للحسن بن سهل وهذا يدل على زهدهن في هذه اللآلئ التي كانت تملأ خزائنهن.

وتتجلى سيادة الخلفاء العباسيين الروحية في مواكبهم التي تميزت بروعتها، فيتقدم موكبهم أيام الجُمع والأعياد رجال الحرس على اختلاف طبقاتهم ويحملون الأعلام، وكان الخليفة في تلك المواكب يلبس القباء الأسود، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويلبس قلنسوة تلف على الرأس كالعمامة (عمارة، م، ١٩٩٣، ص٤٦٦) مدببة مزينة بجوهرة (البيطار، أ، ١٩٩٧، ص٣٥٧) عندما بويع المهدي بالخلافة كان مستوياً على عرش مكلل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب، ووقفا بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسوين بعروق من الذهب، قد نزل فيها الياقوت والزبرجد والفيروز، وكان على يمين العرش منبر مزخرف بأنواع الزينة والجواهر والديباج (المدور، ج، ٢٠٠٣، ص٦٦).

ولما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان الذى كان للعباسة أخت الرشيد جلس فيه هو وجميع أهل بيته وأصحابه.. فجلس على سرير مرصع بالجوهر وأنواعه وألوانه ووضع على رأسه التاج الذى فيه الدرة اليتيمة (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٢٩) وكان للخليفة العباسي الواثق قبَّة مرتفعة في السماء بيضاء، وفي وسطها ساج منقوش مغشى باللازورد والذهب، كانت تسمى قبة المنطقة (الطبري، م، د.ت، ج٩، ص١٢٩).

إلى جانب استخداماتها في مظاهر الزواج ومراسم الجلوس على عرش الخلافة، كانت كذلك تستعمل في الأدوات الشخصية، فقد أمر محمد بن هارون الرشيد يوماً أن يفرش له على دكان في الخُلد، فبسط له عليه بساط، وطرحت عليه نمارق، وفرش مثله، وهيئ له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمر عظيم (الطبري، م، د.ت، ج٨، ص٥١٢) واصطنعت زبيدة خفاً مرصعاً بالجوهر، كما اصطنعت بساطاً من الديباج جميع صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر، يقال إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار(مليون دينار)، (المدور، ج، ٢٠٠٣، ص٩٥).

ومن الأدوار المهمة لها في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، استخدامها في الهدايا من وإلى الخلفاء وكبار رجال الدولة، فقد أهدى بعض ملوك الهند إلى الرشيد هدايا جليلة في جملتها قضيب زمرد أطول من الذراع، وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر، لا قدر له من النفاسة، فوهبه لأم جعفر زبيدة بنت جعفر زوجته، وانتقل إلى الأمين، ثم إلى أخيه المأمون، ثم صار إلى المعتصم بعدهما، وكانت قيمة طائر الياقوت الأحمر الذى على رأس القضيب مائة ألف دينار.(ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص٢٠-٢١).

مضى هارون الرشيد إلى الري سنة ١٨٩هـ/٨٠٤م، فأقام بها نحواً من أربعة أشهر حتى قدم عليه علي بن عيسى بن ماهان - واليه على الري - بالأموال والهدايا والطُرف من المتاع والمسك والجواهر وآنية الذهب والفضة، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم. (الطبري، م، د.ت، ج٨، ص٣١٦) وكانت هداياهم من الطرف والهدايا وغير ذلك (ابن الأثير، ع، ١٩٩٥، ج٦، ص١٩١).

هذا عن الهدايا التي كانت تأتي إلى الخلفاء من الأحجار

الكريمة وأشكالها التي شكلت فيها، أما عن هدايا الخلفاء إلى غيرهم، فمنها أن الخليفة المهدي لما ولى الخلافة أعطى الدرة العظيمة التي وجدت في خزائن بنى أمية، لحسنة جاريته فخرطتها فصين للنرد (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٧٤) ولما ملك محمد الأمين قسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه، وحمل إليه ما كان في الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح (الطبري، م، د.ت، ج٨، ص٥٠٨-٥٠٩) وقام المأمون برد الهدية لدهمى ملك الهند، وكانت الهدية فارساً بفرسه وجميع آلاته من عقيق (ابن الزبير، أ، ص٢٧) ووهب المأمون للحسن بن سهل عقداً قيمته ألف ألف درهم ومائة ألف درهم وستة عشر ألف درهم (مليون و١١٦ الف درهم) (شيخ الربوة، م، ١٨٦٥، ص٨٦).

وقد بلغ من كثرة الأحجار الكريمة في عهد الخليفة المأمون أن جواريه كن يهدين الجوهر لبعضهن البعض على الرغم من ارتفاع أسعارها، فقد أهدت مؤنسة جارية المأمون إلى إحدى صديقاتها من الجواري، بعلم المأمون مخنقة – قلادة – واسطتها درة مثل بيضة العصفور، قيمتها عشرة آلاف دينار، وأربعة أحجار ياقوت أحمر، وأربعة أحجار زمرد عن يمينها وشمالها بين فرائد ذهب. (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٨-١٩).

كما كانت تستخدم في مكافأة القادة العباسيين على ما قاموا به من مجهودات حربية، فعندما قضى الأفشين على حركة بابك الخرمى في خلافة المعتصم، حمل إليه دُرّاعة من الديباج الأحمر منسوجة بالذهب والجواهر، وقلنسوة عظيمة نظم عليها كثير من اللؤلؤ والجوهر... وتوج بتاج من الذهب مرصع بالجوهر، وإكليل ليس فيه من الجوهر إلا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب (المسعودي، ع، ١٩٧٣، ج٤، ص٥٩).

ومن باب إتمام الفائدة أن نذكر بأن الأحجار الكريمة كان لها دور أساسي في بعض الصراعات السياسية التي شهدها العصر العباسي الأول خاصة في أحداث الفتنة بين الأمين والمأمون، فكانت قيمة الجوهر الذى سلم من النهب ببغداد بعدما فرقه محمد الأمين ووهبه، وقدمت به جمرة العطارة صاحبة خزانة الجوهر على المأمون بمرو، بعد فتنة الأمين . على ما ثبت في الرقاع الموجودة عليه . ألف ألف ألف ومئة ألف ألف وستة عشر ألف ألف درهم (مليار و١١٦ مليون درهم) (ابن الزبير، أ، ١٩٥٩، ص١٨٤)، وهو مقدار مبالغ فيه للدلالة على حجم الثروة.

الخاتمة

من خلال ما تم ذكره آنفا عن دور الأحجار الكريمة في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، يمكن أن نخلص بالنتائج الآتية:

١. إن الأحجار الكريمة في العصر العباسي الأول كانت متعددة الأسماء، بل إن الحجر الواحد، كان له عدة أسماء، وأن بعضها كان أوسع انتشاراً وأهمية من البعض الآخر.

٢. إن الأحجار الكريمة لم يكن لها أسماء متعددة فقط، بل كان لها ألوان متعددة أيضاً، وأن الحجر الواحد له عدة ألوان، ومع ذلك كان القائمون على التجارة فيها في بلدان العالم الإسلامي يستطيعون التمييز بينها وتقدير أسعارها، وهذا يدل على مدى براعتهم في هذا المضمار.

٣. أظهرت الدراسة بأن أسباب اقتناء الأحجار الكريمة في العصر العباسي الأول كانت متعددة، منها جمال وروعة هذه الأحجار، هذا فضلاً عن القيمة المادية لبعض هذه الأحجار مثل اللؤلؤ، كما كان لبعضها الفوائد الطبية العامل الأكبر في الحصول عليها، بالإضافة لبعض الموروثات الشعبية والمعتقدات في نفع أو ضر بعضها للإنسان عموماً.

٤. كشفت الدراسة بأن فئات مشتري الأحجار الكريمة في العصر العباسي الأول قد تمثلت في الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة، كما كان للعامة حظاً في ذلك بسبب كثرتها في ذلك العصر، ورخص أسعار الكثير منها.

٥. أبان البحث عن أن هذه الأحجار الكريمة كان لها استخدامات عدة في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، مثل المباهاة والتفاخر بها في المناسبات الاجتماعية مثل حفلات الزواج، وحفلات الجلوس على كرسي الخلافة والمواكب وغيرها.

التوصيات

١ – الحث على إعداد المزيد من هذه الدراسات التي تعمل على بيان دورها المهم في الاقتصاد في العصور الإسلامية المختلفة، وبيان الدور الريادي للمسلمين في الأحجار الكريمة استخراجا وصناعة وتجارة.

٢ – أن تتبنى الحكومات العربية والإسلامية مثل هذه الأبحاث؛ لأنها تكشف عن مواطن الأحجار الكريمة في البلدان العربية والإسلامية وطرق صناعتها، فإذا ما تم إحياء صناعتها وتجارتها في العالم العربي والإسلامي، فإنها سوف تدر أموالاً طائلة، خاصة أنها مما خف وزنه وارتفع ثمنه.

٣ – حث الباحثين في الكليات العملية – مثل قسم الجيولوجيا بكليات العلوم – على تبني أفكار علماء العرب والمسلمين القدماء في خصائص هذه الأحجار وتركيباتها

الكميائية، خاصة أن معلوماتهم المدونة في مؤلفاتهم جاءت مطابقة للحقائق العلمية لهذه الأحجار بنسبة تتجاوز ال٨٠ %.

٤ – نشر الوعي في طبقات المجتمع المختلفة بأهميتها في حياتهم اليومية، والحرص على اقتنائها بأنواعها المختلفة، كى تنشط هذه الصناعة والتجارة مرة أخرى، وبالتالي ستعمل على القضاء على جزء كبير من البطالة في العالم العربي والإسلامي.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

– ابن خرداذبه، عبيدالله بن عبدالله، (د.ت)، المسالك والممالك، د.ط، دار صادر– بيروت.

الأبشيهي: محمد بن أحمد الأبشيهي، (١٩٨٣م)، المستطرف في كل فن مستظرف، ط١، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية.

ابن أبى أصيبعة: أحمد أبو القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة، (١٩٩٨م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط١، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية.

ابن الأثير: علي بن أبى الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير، (١٩٩٥م)، الكامل في التاريخ، ط٦، بيروت – لبنان، دار صادر.

ابن الإكفاني: محمد بن إبراهيم بن الإكفاني، (١٩٣٩م)، نخب الذخائر في أحوال الجواهر، د.ط، تحقيق أنستاس الكرملى – القاهرة.

ابن الزبير: القاضي الرشيد بن الزبير، (١٩٥٩م)، الذخائر والتحف، د.ط، تحقيق د/ محمد حميد الله، الكويت، دائرة المطبوعات.

ابن الساعي: علي بن أنجب المعروف بابن الساعي، (د.ت)، نساء الخلفاء، د.ط، تحقيق د/ مصطفي جواد. مصر، دار المعارف.

ابن الفقيه: أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، (١٨٨٥م)، مختصر كتاب البلدان، د.ط، هولندا، بريل – ليدن.

ابن الوردي: سراج الدين عمر بن الوردي، (١٩٢٣م)، خريدة العجائب وفريدة الغجائب، د.ط، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي.

ابن ماسويه: يحى بن ماسويه، (١٩٩٧م)، الجواهر وصفاتها، د.ط، تحقيق / عماد عبد السلام، مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (١٩٩٧م)، لسان العرب، ط٢، بيروت –لبنان، دار إحياء التراث العربي.

البيروني: محمد بن أحمد البيروني، (١٩٩٥م)، الجماهر في معرفة الجواهر، ط١، طهران، شركة النشر العلمي.

الدمشقي: جعفر بن علي الدمشقي، (١٩٠١م)، الإشارة إلى محاسن التجارة، د.ط، مطبعة المؤدي. ابن رسته: أحمد بن عمر بن رسته، (د.ت)، الأعلاق النفيسة، د.ط، بيروت –لبنان، دار صادر.

شيخ الربوة: محمد أبى طالب الأنصاري المعروف بشيخ الربوة، (١٨٦٥م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (د. ت)، بطرسبورغ، الأكاديمية الإمبراطورية.

الطبري: محمد بن جرير الطبري، (د.ت)، تاريخ الرسل والملوك، د.ط، دار المعارف.

الغزولي: علاء الدين بن عبد الله الغزولي، (١٨٨٢م)، مطالع البدور في منازل السرور، د.ط، مصر –القاهره، مطبعة إدارة الوطن.

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، (١٩٧٣م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، د.ط، تحقيق / محمد محي الدين، بيروت –دار الفكر.

المغربي: أحمد بن عوض المغربي، (د.ت)، قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار، د.ط، تحقيق / بروين بدري توفيق، بغداد، خزانة التراث.

المناوي: محمد عبد الرؤوف المناوي، (١٩٩٠م)، التوقيف على مهمات التعاريف، ط١، بيروت – لبنان، دار الفكر.

المراجع العربية والمعربة:

البيطار، أمينة البيطار، ١٩٩٧م تاريخ العصر العباسي. ط٤، سوريا، منشورات جامعة دمشق.

عمارة، محمد عمارة، ١٩٩٣م، قاموس المصطلحات الاقتصادية، ط١، بيروت، دار الشروق.

المدور، جميل نخلة المدور، ٢٠٠٣م، تاريخ العراق في عصر العباسيين، ط١، القاهرة، دار الآفاق العربية.

The Gemstones and the Interest of Abbasids in them in their First Era 132-232AH / 750-847 AD

Imam Shafei M. Hamodi, Qasim M. Gonimat, Sattam Z. Al-Qateeb, Asma R. Al-Arab *

ABSTRACT

Gemstones are one of the unique things that Almighty Allah created in the universe because of their form, beauty, colors and shapes. Gemstones attracted the attention of people over history and in particular during the first Abbasid period. The caliphs of Bani Abbas were interested in gathering every precious thing especially the gemstones which were unique not found for them and by other people in their time. The study discusses the concept of jewels, gemstones, their names, types that were known during the first Abbasid period, the regions of their existence in the Islamic and non-Islamic countries and the ways to find them either in land or water. The study also investigates the kinds of people who owned the gemstones either the caliphs, princes, or ordinary people and the role of gemstones in the society of the first Abbasid period.

Keywords: Gemstones, The First Abbasids Era. Gemstones Obtainment.

* Faculty of Arabic Language, Asyout University, Egypt (1). Al- Balq'a Applied University, Jordan (2, 3, 4) Received on 30/06/2016 and Accepted for Publication on 16/09/2016.